المسيح رأس كلّ صاحب رئاسة وسلطان (كول ٢: ١٠)

الأب نجيب ابراهيم

١- سياق النصّ

في الآية ٢: ٩ يؤكد كاتب الرسالة أنّ كمال الألوهية يحلّ حلولا جسديا في المسيح. لذلك على المؤمنين الذين قبلوا التقليد الرسوليّ الذي يعترف بأنّ المسيح هو الربّ، أن يؤمنوا أيضًا أنّ كمال الهبات الإلهيّة يأتي منه ومنه فقط. لا يمكن "للفلسفة" ولأركان العالم أن يمنحوا أيّ دفع نحو هذا الملء المنشود (قو ٢ : ٦-٨).

يُستعمل الفعل "امتلأ، اكتمل" (πληρόω) في الأناجيل ليعبّر عن تتميم الكتاب المقدّس. في رسائل القدّيس بولس يعبّر الفعل عن اكتمال الشريعة في العهد الجديد (رج غل ٥ : ١٤). أمّا في رسائل بولس الثانية (deutéro-paulines) يستعمل الفعل للتعبير عن حالة الكمال الحالّ في المؤمن بالمسيح الذي فيه ملء الألوهيّة. في الرسائل الأصيلة، يعبّر بولس عن أمنيته لوصول المؤمنين إلى حالة الكمال هذه. أمّا رسائل بولس الثانية فتؤكّد أنّ المؤمنين بالمسيح قد نالوا هذا الكمال، يعني أنّهم صاروا ما يجب أن يكون الإنسان حسب إرادة الله. ولكن الرسالة إلى أهل قولسي، مع تنويهها عن هذه اللإسكاتولوجيّا المحقّقة، تدعو المؤمنين للتجدّد على صورة الخالق للوصول إلى المعرفة (٣ : ١٠).

في هذا السياق تأتي آ ٢ : ١٠ ب لتؤكد أنّ المسيح هو رأس كلّ صاحب رئاسة وسلطان. لا بدّ أن يكون هناك علاقة بين البحث عن الكمال لدى أهل قولسي وبين أصحاب الرئاسة والسلطان. لنبدأ باللقب المعطى للمسيح: هو الرأس. علاقة المسيح مع هذه القوات الكونيّة هي علاقة سيادة. النشيد المسيحانيّ (قول ١ : ١٥-٢٠) ذكر هذه القوات بشكل خاصّ، إذ أنّها المخلوقات الوحيدة المذكورة بالاسم، مما يعني، أنّ كاتب الرسالة ينوّه بشكل مميّز بدورها. لقد أظهر الله سيادة المسيح على هذه القوات الكونيّة عندما انتصر عليها بالصليب (٢ : ١٥ و١٩).

٢- لقب "الرأس"

يرد لقب "رأس" (κεφαλή) ثلاث مرّات في الرسالة إلى أهل قولسي: ١ : ١٨؛ ٢ : ١٠ و١٩. في آ ١ : ١٨ و٢ : ١٩ يُستعمل هذا اللقب بعلاقته مع رمز الجسد. هذا الاستعمال بالتحديد هو جديد نسبة إلى رسائل بولس الأصيلة. على سبيل المثال، يقول بولس في الرسالة إلى أهل قورنتس، أنّ الكنيسة هي جسد المسيح (رج ١ كو ١٢). أمّا الرسالة إلى أهل قولسي فتقول أنّ المسيح هو رأس الجسد، أي الكنيسة (١ : ١٨). وبدون أي علاقة مع الكنيسة، جسد المسيح، يقول كاتب الرسالة إلى أهل قولسي أنّ المسيح هو رأس

كلّ صاحب رئاسة وسلطان. مما يعني أنّ لقب الرأس هو لقب كريستولوجيّ قبل أن يكون عنصرا في مفهوم الكنيسة. لذلك باستطاعتنا القول أنّ لقب الرأس في الرسالة إلى أهل قولسي قد استُوجب استعماله نسبة إلى المسألة المسيحانيّة، أي الإيمان القويم بالمسيح، الربّ الوحيد. هو ربّ الكنيسة وسيّد الكون. لا يمكن لأصحاب الرئاسة والسلطان أن يساهموا في كمال المؤمنين بالمسيح، الذين يتعلّقون به تعلّق الأعضاء بالرأس. لا نمو نحو الكمال بدون المسيح، رأس الكنيسة وسيّد الكون. ولكن القوات الكونيّة ليست أعضاء في جسد المسيح. لذلك لا يعني لقب الرأس بالنسبة لهذه القوات سوى سيادة المسيح عليهم.

٣- أصحاب الرئاسة والسلطان

ولكن نتساءل ما هي هذه القوات التي تجذب إليها المؤمنين في قولسي الآخذين بالخداع الباطل القائم على سنّة الناس وأركان العامّ؟

هناك قبل كلّ شيء المعنى الشرعيّ لكلمة "سلطان" (ἐξουσία)، الحقّ والقدرة على القيام بعمل ما. ومن هنا يأتي المعنى الواقعيّ: صاحب منصب عامّ. العهد الجديد يستعمل هذه الكلمة بهذا المعنى العامّ (رج بنوع خاصّ رو ١٣ : ١-٣).

ولكن الثنائي "رئاسة وسلطان"(ἀρχαί καί ἐξουσία) يرد في العهد الجديد ليعبّر عن القوات الروحيّة الكونيّة. لا نجد هذا المفهوم للعبارة في العالم اليونانيّ بل فقط في العالم اليهوديّ. حسب المعتقدات اليهوديّة المعاصرة للعهد الجديد، تسكن السماء قوات روحيّة تتحكّم بالعالم، خاصّة بالطبيعة. حياة البشر تتعلّق بهذه الكائنات الروحيّة، لأنّ لها دور الوسيط بين الله والبشر، هنا تكمن العقدة. بالنسبة لبولس، لا يمكن لهذه الكائنات أن يكون لها دور الوسيط، كما ليس بوسعها أن تبعد المؤمن عن المسيح. نجد هذا التعبير الثنائيّ عشر مرّات في العهد الجديد: لو ١٢ : ١١؛ ٢٠ : ٢٠؛ ١ كو ١٥ : ٢٤؛ أف ١ : ٢١؛ ٣ : ١٠؛ ٦ : ١٢؛ كول ١ : ١٦؛ ٢ : ١٠ و١٥؛ طي ٣ : ١. أمام هذا الاحصاء نلاحظ الأهمّيّة الخاصّة التي توليها رسائل بولس الثانية لهذه العبارة.

هذا التعبير الثنائيّ هو واحد من عدة تعابير تدلّ على اصحاب الرئاسة والسلطان. على سبيل المثال هناك "رؤساء هذه الدنيا" (١ كو ٢ : ٦ و٨)؛ "أصحاب رئاسة" (رو ٨ : ٣٨؛ أف ١ : ٢١)؛ "أرباب" (كول ١ : ١٦؛ أف ١ : ٢١)؛ "أصحاب عرش" (كول ١ : ١٦)؛ "ملائكة" (رو ٨ : ٣٨؛ كول ٢ : ١٨). ويستعمل بولس أربع تعابير شاملة تتضمّن أي صاحب قوّة وسلطان: "علوّ وعمق" (رو ٨ : ٣٩)؛ "في السماوات وفي الأرض وتحت الأرض" (فل ٢ : ١٠)؛ "ما يُرى وما لا يُرى" (كول ١ : ١٦). وأخيرا وبمعرض كلامه عن قدرة الله نحو المؤمنين التي ظهرت بقيامة المسيح من بين الأموات، يؤكّد كاتب الرسالة إلى أهل أفسس أنّ الله أجلسه عن يمينه فوق كلّ القوات معددا إيّاها بأسمائها منهيا اللائحة بتعبير شامل: "... أقامه من بين الأموات وأجلسه إلى يمينه في السّماوات فوق كلّ صاحب رئاسة وسلطان وقوّة وسيادة

وفوق كلّ اسم يُسمّى به مخلوق، لا في هذا الدهر وحده، بل في الدهر الآتي أيضًا» (أف ١ : ٢١). مع هذه العبارة الأخيرة ذات البعد الشامل، يريد كاتب الرسالة أن يوضّح لنا أنّه لم يُرد أن يعطي لائحة كاملة لهذه القوات بل التنويه بأية خليقة ذات سلطان حسب تصور الناس. أمام مجتمع يعتقد أنّه بامكانه الحصول على فوائد من هذه القوات، يؤكّد كاتب الرسالة سيادة المسيح على كلّ هذه القوات معروفة كانت أو غير معروفة، حقيقية أو من صنع الخيال، حاضرة أو مستقبلية.

٤- علاقة أصحاب الرئاسة والسلطان مع المسيح

تظهر هذه القوات الروحيّة بنوع خاصّ في رسائل بولس عندما يتحدث عن المراحل المهمة في تاريخ الخلاص بعلاقته بالمسيح. هذه القوات خُلقت بالمسيح (كول ١ : ١٦). لذلك كانت في البدء مخلوقات حسنة. في القسم الثاني من النشيد المسيحانيّ، نرى أنّ هذه المخلوقات تحتاج إلى المصالحة (كول ١ : ٢٠). لا بل يقول كاتب الرسالة أن المسيح قد انتصر عليها بالصليب (كول ٢ : ١٥).

نتساءل لماذا قام بولس، وخاصّة كاتب الرسالة إلى أهل قولسي، بتصوير هذا الوجه العدائيّ للقوات الكونيّة. على الأرجح لدينا هنا أيضًا خلفية من العالم اليهوديّ. في مخطوطات قمران، وبنوع خاصّ مخطوطة الحرب (QM, 4QM^{a-e}١) لدينا الحرب الإسكاتولوجيّة حسب سفر دانيال ١١-١٢.بمساعدة ميخائيل والطغمات الملائكيّة يحارب أبناء النور أبناء الظلمة المدعومين من بعليال وقوات الظلمة. يكون الانتصار في هذه الحرب على أعداء إسرائل التقليديّين، مؤاب، أدوم وعمّون، إلخ. مع التنويه من خلالهم الى الرومانيّين.

بعد لقائه بالمسيح القائم من بين الأموات أعاد بولس قراءة دور الشريعة والهيكل وأرض الميعاد على نور الإيمان بالمسيح. وبنوع خاصّ، لم يعد الوثنيّون اعداء الله وغرباء (كول ١ : ٢١). لأنّ الأعداء الحقيقيّين للمسيح هم "أصحاب الرئاسة والسلطان"، الخطيئة و"الجسد" والموت. لقد انتصر المسيح على هؤلاء الأعداء. بهذا نرى أنّ بولس قد استعمل واقع إسرائيل ليقدّم لنا واقع المسيح. فالأرض المقدّسة الحقيقيّة هي ملكوت المسيح: "فهو الذي نجّانا من سلطان الظلمات ونقلنا إلى ملكوت ابن محبّته، فكان لنا فيه الفداء وغفران الخطايا" (كول ١ : ١٣-١٤).

يمكن القول أنّ الرسالة إلى أهل أفسس تعيد قراءة دور "أصحاب الرئاسة والسلطان" لتوضّح للمسيحيّين معنى الالتزام بالجهاد الروحيّ ضدّ هذه القوات وما تمثّله: "وبعد فتقوّوا في الربّ وفي قدرته العزيزة. تسلّحوا بسلاح الله لتستطيعوا مقاومة مكايد إبليس. فليس صراعنا مع اللحم والدم، بل مع أصحاب الرئاسة والسلطان وولاة هذا العالم، عالم الظلمات، والأرواح الخبيثة في السّماوات. فخذوا سلاح الله لتستطيعوا أن تقاوموا في يوم الشر وتظلّوا قائمين وقد تغلّبتم على كلّ شيء..." (أف ٦ : ١٠-١٧).

الخاتمة

على المسيحيّين أن يلتزموا الحرب على أعداء المسيح. وعليهم أن يكونوا أكيدين من مصير هذه الحرب. فالمسيح هو رأس كلّ صاحب رئاسة وسلطان وقد انتصر بالصليب (كول ٢ : ١٠-١٥). يحاول كاتب الرسالة إعطاء جواب على تصرف بعض المؤمنين في قولسي والذين كانوا يهابون القوات الكونيّة ويلتجئون اليها، ربما للحصول على فوائد في الحياة اليوميّة ولتفادي المصائب، خاصّة الطبيعية منها.

يشدّد كاتب الرسالة على الإيمان الرسوليّ (رج ٢ : ٦) الذي قبله المعمدون في قولسي فآمنوا أنّ المسيح هو الربّ. أوليّة المسيح وسيادته المطلقة هي موضوع الرسالة الأساسيّ. لا يجب على المسيحيّين الانجراف وراء المعتقدات القائلة بتنوع الوسطاء بين السماء والأرض، بين الله والبشر. الوسيط الوحيد بين الله والبشر هو المسيح ابن الله. هو السيّد الذي يقود الكنيسة إلى ملء النعمة. هو الذي استكنّت فيه جميع كنوز الحكمة والمعرفة (كول ٢ : ٣)، وفيه يحلّ جميع كمال الألوهيّة جسديا (كول ٢ : ٩). لماذا إذاً البحث عن معرفة خلاصيّة خارجًا عنه؟ فيه وحده الخلاص، فيه وحده يكون نموّ المسيحيّ ليصير على صورة خالقه، وصورة الإله غير المنظور هو المسيح (كول ١ : ١٥).

مراجع

ALETTI Jean-Noël, *Saint Paul, Épître aux Colossiens. Introduction, traduction et commentaire* (Études bibliques, nouvelle série, 20), J. Paris 1993

ARNOLD C. E., *The Colossian Syncretism. The Interface Between Christianity and Folk Belief at Colossae* (Wissenschaftliche Untersuchungen zum Neuen Testament, 2. Reihe 77), Tübingen 1995

DELLING G., ἀρχή, GLNT, 1273-1287.

DUNN J. D. G., *The Epistles to the Colossians and to Philemon. A Commentary on the Greek Text* (New International Greek Testament Commentary), Michigan 1996.

FOERSTER W., ἐξουσία, *GLNT*, 630-665.

HÜBNER H., πληρόω, *DENT*, I, 984-991.

LATTKE M., κεφαλή, *DENT*, I, 12-19.

LOHSE E., *Le lettere ai Colossesi e a Filemone. Testo greco e traduzione* (Commentario teologico del Nuovo Testamento XI/I), Brescia 1976 (originale tedesco 1968).

REID D.G., "Principati e Potestà", in Hawthorne – R. P. Martin – D. G. Reid (a cura di), *Dizionario di Paolo e delle sue lettere*, (edizione italiana a cura di Romano Penna), Cinisello Balsamo 2002 (originale inglese 1993), 1223-1232.

SCHLIER H., κεφαλή, *GLNT*, 363-386.

o